من الأدب البولندي

عدو الكذب

قصة عن الكاتب البولندي

فاسيلف سوتكي

نقلها حسين المهدي غنام

سيداتي . سادتي

يجب عليكم جميعاً أن تخجلوا من أنفسكم

قلّب رئيس المحكمة نظره في الأضابير المطروحة أمامه ، ثم صاح بالمتهم — قف ! إن اسمك «باتوسلاف ماتوشك» ، وعمرك أربعون سنة ، ولكنك ما زلت غريباً . وقد استغلت في «براتسلافا» زمناً ما . ثم حولتك إدارة البريد إلى هذه البلدة ، فسببت لها كثيراً من الألم ، وانغصت على أهليها الحياة ، ولا أستطيع تعليل ذلك . ولكن لديك تخبرنا عن السبب الذي حدا بك الى فعلتك !! فأجاب المتهم بالتأكيد. ولكني لا أستطيع أن أشرح ذلك في كلمات قليلة فاسمح لي قبل كل شيء أن أؤكد لك أني كنت دائماً ، وما زلت ، بطلاً من أبطال الصدق ، بل أقول انني كنت وما زلت متعصباً للصدق تعصباً دينياً ، إذا صح هذا التعبير!

ونقل المتهم بصره من الرئيس الى الجمهور ، ووجه الكلام اليهم جميعاً ، ثم قال: والآن ، اليكم قصتي ... لقد مرّ الكثير من المراسلات بين يدي في مكتب البريد ، فأحببت أن أكوّن لنفسي فكرة عامة عن مستوى الذكاء عند سكان هذه البلدة ، وهذا لا يتسأتى الاّ بالاطلاع على رسائلهم ومكاتباتهم ، ولذا فضضت كثيراً منها . . . ومن السهل ان يُفضّ الانسان مظروفاً ويقرأ ما فيه ثم يقفله مرة أخرى .. وبهذه الطريقة قرأت الرسائل والخطابات ، فرأيت أشياء لم تسرني ... إن مستوى الذكاء فيها يستحق الاشفاق ، فانه أقل من المتوسط ، ولم تحتو كتب القوم ورسائلهم الاّ على سخافات مزرية وتلفيقات وغائم وأكاذيب.

سيداتي ! سادتي ! يجب عليكم جميعاً أن تخجلوا من أنفسكم ...!

وما كاد المتهم ينهي بهذه الكلمات ، وقد وجهها الى المستمعين من أهل البلدة ، حتى تعالت صيحات السخط والحنق وكادوا يزلزلون له سوقاً ، غير أنه ظل هادئاً ولم يحرك ساكناً ، رغم ما بدا على الجمهور من آثار الغضب . واستمر في كلامه فقال : ... والكثرة ما قرأت من رسائل الناس تعلمت تقليد خطوطهم وتوقيعاتهم ، فهذه هي الطريقة

المثلى التي رأيتها أنجع الطرق جميعاً لتنفيذ خطتي . . . وبعد حيرة استغرقت ثلاثة شهور كاملة ، وجدت نفسي قادراً على تنفيذ أولى محاولاتي . . . وذلك أن شاباً من هذه البلدة كتب خطاباً الى فتاة في بلدة « مورافسكا أوستراغا » . . . وكان هذا الخطاب غاية في الكآبة والحزن وخيبة الأمل . . . وكان فيه ثلاث غلطات نحوية فاحشة ، بله اخطاء النهجية . . . ولكني كنت قد قرأت قبل ذلك ثلاثة كتب من تلك الفتاة موجهة إلى فتاها ، وقد فهمت من هذه الرسائل ان الفتاة رضية الأخلاق سمحة الشخصية . فعزّ عليّ أن يكون كتاب الفتى محبّباً لأمالها ، فألقيت به في سلة المهملات ، وأنشأت بدلاً منه خطاب غرام مشرق الديباجة قلت فيه للفتاة « تعالي إليّ يا حبيبتي ، اني أريد أن أتزوج منك بغير إبطاء » . وقد جاءت وتزوجت فعلاً . . . ولكن ليس من فتاها الأول بل من فتى آخر ، هو صديق له ، أحبّته لأول نظرة حبّاً فاق حبها للفتى الآخر ، وعاشا زوجين سعيدين . . . وليست هذه غلطتي بطبيعة الحال . . .

وهنا قال رئيس المحكمة ولكن يظهر انك كتبت رسائل أخرى غير رسائل الحب . . .

فأجاب المتهم — نعم . . . كتبت أشياء أخرى . . . ولكن فارقاً بعيداً بين سيدة غاية ، وبين السيد « فرانتا نوفاك » . . . لقد كتب السيد « نوفاك » رسالة الى السيد « كورت » وقد ذهب الى « براجا » أسابيع قليلة ، وقال له في تلك الرسالة : « متى تعود الينا ثانية ايها العزيز كورت ؟ اني لافتقدك كثيراً فلا أجدك . . . » . ومضى في رسالته على هذا النمط ، فملأ صفحتين . على أني أعلم أن رأي السيد « نوفاك » في السيد « كورت » ، رأي مخالف لما جاء في تلك الرسالة . . . وعلى انه ليس من وظيفة مصلحة البريد أن تشجع الكذب ، أو تعمل على نشره في الناس ، فقد كتبت حاشية ذيلت بها رسالة السيد « نوفاك » ، مقلداً خطه بطبيعة الحال ، قلت فيها : « . . . اني لم أقصد بما كتبت اليك إلاّ السخرية منك ، فاذا أردت أن تعرف ما هو رأيي فيك حقّاً ، فما عليّ من حرج إذا قلت لك بكل صراحة : إنك سكّير عربيد وغد نذل ، خنزير كبير . . . » . . . ثم بعثت بالرسالة ، وكانت النتيجة أن السيد « كورت » ، قابل السيد « نوفاك » بعد عودته من براجا ، وحياه بلكمة على فكه .

قال المتهم هذا مستغرقاً في الضحك .

فصاح به رئيس المحكمة — أحسن من سلوكك وقوّم من تصرفك ! ولا تنس إنك متهم أيضاً بسرقة أشياء أخرى أرسلت بالبريد . . .

قال المتهم اني أعلم حقيقة ما تشير اليه ، ولكن هذه ليست سرقة ، أما ما حدث بالضبط فكان هذا : « ذات يوم تسلمنا رسالة من پاريس ، عليها هذا العنوان (السيد

الكرنت « موفت كرابتوه الثاني » يحفظ بشباك البريد) . فما قرأت هذا العنوان أخذت بغرابته فاشتبهت فيه ، وفحصت الرسالة ، ووجدت بداخلها ثلاث صور ... أتعلم ما هي ؟ إنها ثلاث صور بذيئة وضيعة سافلة ... ولم تكن بالصور التي ربما قد يذهب إليها خيالك . ولكنها قبضت نفسي ، على أية حال ، وجعلتني أشمئز من منظرها ، ومن السيد الذي كانت مرسلة إليه . ولكي أعلن عن اشمئزازي لهذا السيد ، ألقيت بالصور القذرة الثلاث في الوقد ووضعت بدلاً منها ورقة أخذته من الرماض ، حتى أؤكد لهذا السيد تقززي من الصور المرسلة إليه ... ولكن . . هل تستطيع أن تتصور أو تتخيل من ذا الذي جاء في اليوم التالي لاستلام تلك الرسالة وما تحوي من صور ؟ لا أظنك تصدق هذا ... ولكنها الحقيقة ... فالذي جاء لم يكن غير السيد « كارل دوستالك » ، عمدة هذه البلدة بنفسه . . . هذا الرجل الذي يحترمه كل انسان ، وهو والد ستة أبناء . . ! »

وعندما انتهى المتهم من هذا الكلام انفجر الجمهور المتفرج ضاحكاً . . . وكان « دوستالك » ، عمدة البلدة ، رجلا متديناً ، قوي البنية ذا لحية كبيرة بيضاء ورأس أصلع ، . . . فلما سمع هذا الكلام ، وقف ساكتاً ، ومسح أنفه بمنديل كبير الألوان ، وخرج من قاعة الجلسة يدلف صامتاً من غير أن ينبس بكلمة واحدة . . .

وصاح رئيس المحكمة — إني أمنعك من افشاء أسرار البريد ، وإلاَّ رفعت الجلسة . .

وعندئذٍ مال عضو اليمين على رئيس المحكمة يهمس في أذنه . وكاد الرئيس يجيبه لولا أن فاجأه المتهم قائلاً : « . . . لا تقلق بالاً الى ما يقول مستشارك ياسيدي الرئيس ، إنه غير أهل لصداقتك . . . »

وصاح الرئيس بالمتهم — أمسك لسانك ! . . لا تتدخل في شئون لا تعنيك

المتهم — حسن . . . هذه أمور لا تعنيني حقاً . . ولكنك تحملني إذ تعامل مستشارك معاملة الأكفاء ، فهل تعلم ماذا قال عنك في إحدى رسائله ؟ . . . »

وأخرج المتهم ورقة كبيرة ومضى يقرأ « . . . إني لم أرَ في حياتي ، رجلاً أكثر غفلة من رئيس محكمتنا . . . »

ولم يستطع رئيس المحكمة أن يسمع بقية رأي مستشاره فيه ، فرفع الجلسة ، وخرج مندفعاً من القاعة غاضباً ، يتبعه عضو اليمين صائحاً إنه سيوضح له كل شيء ، ولكن الرئيس رفض أن يصغي اليه . . . وجلس المتهم ، ووقف خلفه أحد ضباط البوليس .

والتفت المتهم الى الضابط وقال : لست أفهم لماذا يكذب الناس هذه الأكاذيب الكثيرة ، ويظهرون غير ما يبطنون . لو أنهم لم يقولوا غير الواقع ، لأصبحت الدنيا أجمل بكثير مما هي ، ولعشنا فيها سعداء !